ديموستينس الخطيب

هو شيخ خطباء اليونان ومن كبار رجال السياسة بينهم. وُلد في مقاطعة بيانيا قرب اثينا واختلفوا في زمان ولادته فقيل سنة ٣٨٥ قبل المسيح وهو المعوَّل عليه الآن وقيل سنة ٣٨١. ومات ابوهُ وترك له ولامهِ ولاختهِ مالاً جزيلاً واقام عليهم ثلاثة اوصياء وكان عمر ديموستينس عند موت ابيهِ سبع سنوات وعمر اختهِ خمساً. فخان الاوصياء ومدوا ايديهم الى المال واهملوا تربية ديموستينس فلذلك ولمبالغة امهِ في تدليلهِ لم يتعلَّم في يتمهِ ما يؤهِّله ليكون من رجال الدهر ولولا ما فُطِر عليهِ من الفطنة والذكاء لطوى الدهر ذكرهُ كما طوى ذكر غيرهِ. ولمَّا لم يتيسر لهُ مَنْ يوجِّه قوى عقلهِ الى الامور المستحسنة توجَّهت الى الامور المستهجنة فكان يفتن بين رفقائهِ ويذيقهم بدهائهِ مرَّ العذاب حتى لقَّبوهُ بالحيَّة لما كان عندهُ من السعاية والنميمة والمكر والتحيُّل. فمضى سني يتمهِ على هذا المنوال حتى بلغ ست عشرة سنة من العمر. فاتفق حينئذٍ انهُ سمع بعض مشاهير ذلك الزمان واسمهُ كَلِسْتِرات يرافع في دعوى ورأى ما لهُ من رفعة المنزلة والفوز وما لكلامهِ من النفوذ فهاجت فيهِ محبة المجد والعزَّة ونعلَّق قلبهُ بالخطابة. فقرأ البيان على معلم ماهر يُسمَّى ايسيوس وبرع فيهِ غاية البراعة حتى انهُ لما بلغ السنة السابعة عشرة رافع اوصياءهُ وفاز بالدعوى ولم تزل حجَّتهُ الى اليوم شاهدة بما كان عندهُ من الفطنة والتعقُّل

ثم سوَّلت لهُ نفسهُ ان يخطب على معشر الاثينيين وكانوا من اعلم اهل زمانهم وادقهم انتقاداً واشدهم تهكُّماً واستخفافاً. فابوا ان يصغوا اليهِ لتصيُّد عبارتهِ وتلعثمهِ في الكلام وصاحوا بهِ فانزلوهُ عن

الموقف مرتين ولكنّ ذلك لم يثنِ عزمه بل هيج كل ما استكنّ فيه لاصلاح عيوبه والفوز برغوبه . فجلا على ما يروي الفدماء الى مترل تحت الارض وشرع يقرأ ابلغ الكتب وينسخ نوكيد يدس ثماني مرات وكان يضع الحصى في فمه ويقف على شاطئ البحر ويخطب ليصطلح لفظه ويعتاد على ضجيج الجمهور وقضى هناك زماناً طويلاً في التأمل والمطالعة والتأليف حتى انه لشدّة تعبه على دقة المعاني وصحة التراكيب كان خصومه يعيرونه بان رائحة عبارته زيت فجيبهم ان زيتي يضيء على ما لا يستطيع زيتكم ان يضيء

ولما بلغ السابعة والعشرين من عمره عاد فخطب على معاشر اهل اثينا فاد هشهم ببلاغته وخطابته . على انه لم يظهر كل ما عنده من سحر البلاغة وعجيب الخطابة حتى وجّه سهام كلامه الى فيلبس ملك مكدونية

كان فيلبس هذا ملكاً عاقلاً محبًّا للعلوم والمعارف ولتوسيع الفتوحات . وكان لاهل اثينا مهاجر في جوار الشاطئ الغربي من بحر ايجي . فجعل يشن الغارة عليها المرة بعد المرّة حتى وقعت العداوة بينه وبين اهل اثينا . فلما انتظم ديموستينس في سلك ديوان اثينا عرف ما وراء اعمال فيلبس قبل ان يظهر شيء منها فتصدّى لمقاومته وتحزب اليونان عليه واحباط مساعيه . فخطب ضدّه خطبًا بديعة سماها الفيليّات لم تزل فريدة في محاسنها حتى الآن ولو خطبت على قوم فيهم حياة لاقتحموا اعظم الاخطار ولم يبالوا ولكن الاثينيين كانوا حينئذٍ على غاية الرخاء والفتور غاتصين في عجار اللذات والملاهي فلم تؤثر فيهم تأثيرها . ثم هاجم فيلبس الاولنثيين حلفاء الاثينيين فبعثوا اليهم مستنجدين فعضدهم ديموستينس بثلاث خطب اهاج فيها اهل اثينا فانجدوهم ولكن فيلبس قهرهم وباع الاولنثيين عبيدًا . وبعث اهل اثينا معتمدين لعقد معاهدة مع فيلبس وكان منهم ديموستينس وخطيب آخر شهير يسمّى اسخنيس . فلما عادوا الى اثينا شكاهم ديموستنيس بانهم اخذوا الرشوة من فيلبس وخانوا عهودهم فتخلّص اسخنيس ورفقاؤه بالتحيّل ومن ثمّ انتشبت نار العداوة بين ديموستينس وحزبه وبين اسخنيس وحزبه

وبعد امور يطول شرحها دنا فيلبس من اثينا حتى كاد يهاجمها فاشفق اهلها من الخطر واسرعوا للمشاورة في امر النجاة وعلموا ان كل ما كان يخوف منه ديموستينس ويحذرهم من عاقبته تمّ عليهم . فخطب عليهم ديموستينس خطابًا بليغًا اشار فيه بوجوب اتحادهم مع اهل ثيبس فاذعنوا جميعًا لمشورته ولاقت جيوشهم المتحدة جيوش فيلبس قرب مدينة خيرونيا (٣٣٨ ق م) فدارت عليهم رحى الحرب وقبل ان ديموستينس فرّ من ساحة القتال حاملا علم ان النصر لفيلبس . غير ان قومه لم يزالوا يثنون به وطلبوا اليه ان يرثي القتلى بخطاب قبل دفنهم وفوّضوا اليه تحصين المدينة حذرًا من

هجوم العدو

وفي اثناء ذلك استدعى صديق لديموستينس اسمهُ كتسيفون ان يكلّل ديموستينس باكليل من الذهب جزاء عمّا ابداهُ من الحمية الوطنية وعمّا خدم بهِ ابناء بلادهِ . وكانت الشريعة عندهم انهُ قبلما يُقبَل استدعاءٌ يُعرَض على الجمهور فاذا بدا لاحد اعتراض عليهِ يقيم دعواهُ على صاحب الاستدعاء ويترافعان . فلما طرح الاستدعاء على الجمهور اقام اسخينس الدعوى على كتسيفون واشرك بها ديموستينس ايضاً . الاَّ ان اثينا كانت حينئذٍ منهمكة بالحروب فلما صنت لها الاحوال بعد ثماني سنوات عاد اسخينس فجدَّد الدعوى وقام ديموستينس محامياً عن كتسيفون وعن نفسهِ . فتقاطر الناس من كل انحاء بلاد اليونان لاستماع المناقشة بين اثنين من اشهر ابناء ذلك الجيل واقواهم حجةً . فوقف اسخينس وابدى ما عندهُ حتى سحر القلوب ولكن لمَّا قام ديموستينس وسطعت شمس برهانهِ في سماء الخطابة انكسفت شمس اسخينس وافل نجم سعدهِ فلم يحظَ بخُمس الاصوات ولذلك غُرِّم بغرامة وافرة فلما عجز عن تأديتها نفي بموجب الشريعة الى جزيرة رودس[1] . روى فوتيوس انهُ لمَّا كان اسخينس خارجاً من اثينا تبعهُ ديموستينس بطيِّب خاطرهُ واعطاهُ كيساً من المال فقال اسخينس كيف لا احسد على بلد اجد عدوي فيهِ اكرم من صديقي في غيرهِ . وروى بلوترك ان ديموستينس لا اسخينس قال هذا القول لعدو احسن اليهِ

وقبل ذلك مات فيلبس ملك مكدونية وخلفهُ ابنهُ الاسكندر ذو القرنين فاستبشر ديموستينس برفع العار وجعل يسعى لانضمام اثينا وثيبس وجهز اهل ثيبس بالاسلحة على نفقتهِ . ولكن الاسكندر لم يبقِ له رجاء فانهُ هاجم ثيبس ودك ابنيتها دكاً ولم يبقِ فيها الاَّ بيتاً واحداً . ثم طلب من اهل اثينا ثمانية خطباء رؤساء الثائرين وكان ديموستينس من جملتهم ففصَّ ديموستينس على اهل اثينا هذه القصة قائلاً عاهدت الذئابُ الرعاةَ ان لا يهاجم القطيع اذا سلموها الكلاب فقبل الرعاة بالعهد ولكن لمَّا رأت الذئاب الحظيرة خالية من الكلاب هجمت على القطيع ومزَّقتهُ كل ممزَّق

ومات الاسكندر وكان ديموستينس فارّاً من اثينا بدعوى انهم بها زورًا . فلما سمع بموتهِ اخذ يطوف من بلد الى بلد ويدعو الناس الى الثورة والاستقلال وينضمُّ الى معتمدي اثينا حيث توجهوا . ثم كتب اليهِ اهل اثينا يلاطفونهُ فاتى وقابلوهُ باحتفال عظيم جدًّا حتى قال ان هذا اسعد ايام حياتي . وحارب اليونان انتيباتر خليفة الاسكندر فغلبهم غلبة عظيمة وبدَّد شملهم . فاجمع رايهم على قتل

(١) وفتح اسخينس في رودس مدرسة لتعليم البيان واجتمع اليهِ يوماً جمهور كبير من اهلها فتلا عليهم خطابة الذي خطبهُ على الاكليل فادهشهم وقالوا كيف سقطت دعواك وانت خطيب هذا الخطاب فقال لهم ماذا كنتم تقولون لو سمعتم ديموستينس يخطب خطابة

ديموستينس فعزّم بعض رفقائه والتجأ الى هيكل يوصبدون فتبعه قائد لاتيباتراسة ارخباس ولما رأى ديموستينس انه لم يعد له مناص من الموت مصّ السم من قلم كان معه واسلم نفسه للجند محتضرًا ثم اقام له اهل ايجينا تمثالًا بديع الصنعة والتشخيص ونقشوا عليه بيتين من الشعر معناهما: يا ديموستينس لو ساوت قوة بدنك قوة عقلك لم يقدر مريخ مكدونية ان يقهر اليونان البتة

هذا وقد مضى الآن على ديموستينس اكثر من الفين وستي سنة ولم تزل كتاباته متفردة بالبساطة والصراحة والدقة والبلاغة وقوة البرهان وتهييج العواطف وسحر العقول وما تضمنته من حب الوطن والغيرة على صالح الامة

مهاجرة الانسان الى اميركا قبل ان اكتشفها كولومبوس

لجناب الدكتور امين ابي خاطر (١)

قد اعتاد الفلاسفة على تقسيم الحيوان الى اجناس وانواع واسباط تسهيلًا للبحث فيه ومن اهم مسائلهم هذه المسئلة: ألانسان جنس واحد ام اجناس متعددة. فعلماء الانثروبولوجيا قد انقسموا في ذلك قسمين الواحد يقول بتعداد جنس الانسان مستندًا الى اختلاف انواعه قامةً وهيئةً ولونًا وغير ذلك مما يتاز به سكان الاقاليم المختلفة بناء على ان الاختلاف المذكور جوهريٌّ. والثاني يقول بوحدته معتبرًا هذا الاختلاف ناتجًا عن احوال عرضية نوّعت الاصل انواعًا شتى. ولكلٍّ من الفريقين اقوال يضيق المقام عن ايرادها فانتصر على ذكر الحقيقة تمهيدًا لمسئلة وجود الانسان في اميركا قبل اكتشاف اهل اوربا لها لانها من اعظم براهين الزاعمين بتعداد الجنس فاقول

ان العهد القديم الذي يعتبرهُ اليهود والنصارى والمسلمون معًا اول كتاب قال بوحدة الجنس ومنه عرفنا ان كل البشر من اب واحد وام واحدة. وقد زعم بعضهم انه من نفس هذا الكتاب يستدل ان اليهود فقط هم من نسل آدم واما بقية الطوائف فهم فروع اصول خُلِقَت قبل آدم. وبما ان هذه المسئلة هي علمية محضة فلا نجول فيها الاّ بالعلم ولا ندخلها دينًا لان البراهين الدينية تزيد اصحاب مذهب التعداد نفورًا وتصلبًا. اما فلاسفة القرن الثامن عشر فقد ذهبوا فيها مذهب العلم والعقل الآن براهينهم عارية عن كل حقيقة علمية وعقلية. هذا واذا كانت الصفوف البشرية بكل صفاتها المميزة تلتحق بجراثيم ممتازة في الاصل وتؤلف على هذا النسق اجناسًا ممتازة كان درسها من ابسط ما يمكن ولم يكن فيها من الصعوبة اكثر مما في الاجناس الحيوانية او النباتية فيكفينا لذلك ان ننظر فيها فقط ونرتبها ونعرف نسبتها وغاية ما علينا تحديد حدودها والبحث في تاثير الصفوف

(١) خطبة في الاجتماع السنوي لابناء المدرسة الكلية في شهر تموز الماضي